ظاهرة الهجوم على الحجاب

د/ ليلى بيومي - مصر

كاتبة إسلامية

ملخص البحث:

امتدت ظاهرة الهجوم على الحجاب لتشمل قيادات سياسية وإعلامية وفكرية مختلفة بالبلاد العربية، وتباينت حدة تصريحات هذه القيادات، ففي حين ارتفعت حدتها في دولٍ تجذّرت فيها العلمانية، نجد أنها خفتت بعض الشيء في دولٍ للثقافة الإسلامية فيها مكانٌ واعتبارٌ، أما في دول الخليج، فلم يكن للظاهرة وجود ظاهر؛ بسبب ما تمثله الثقافة الإسلامية والزي الإسلامي من إطار تقليدي يحكم هذه المجتمعات ويسيطر عليها.

وفي توقيت متقارب تصاعد الهجوم الغربي على الحجاب؛ حيث أعرب الرئيس الفرنسي شيراك عن قلقه إزاء ظاهرة «الأصولية» الإسلامية فهو يرى «عدوانية ما» في ارتداء الحجاب، ولم يختلف الأمر كثيرًا في ألمانيا وهولندا. ولهذه الظاهرة أبعادٌ مختلفة في سياقاتها، فثَمَّ بُعْد تاريخي لها، وآخر سياسي، وثالث ثقافي وفكري، كل هذه الأبعاد تؤثر على الواقع الاجتماعي العربي والإسلامي، وعلى الرغم من الضغط السياسي العلماني المتواصل ضد الحجاب، إلا أن الحجاب ظل منتشرًا في مجتمعات المسلمين حتى العشرينيات من القرن الماضي، عندما بدأت حركة السفور تظهر في تركيا الكمالية، ثم في مصر -على اختلاف درجة الحدة- قبل أن تنتشر إلى بلدان عديدة، ومع ذلك فقد ظلت مجتمعات إسلامية ملتزمة بالحجاب والنقاب على الطريقة القديمة حتى زمن عودة الحجاب.

كما شكَّل ارتداء الحجاب في حياة النساء المسلمات في الغرب تحديًا كبيرًا، فلقد أصبحت المرأة المسلمة طرفًا مهمًّا في المعركة الدائرة بين الإسلام والغرب، ولازال الغرب -المتغني بالحريات والتعدد العِرْقي والثقافي- شديد الحساسية وغير متسامح في شأن الحجاب.

وتختلف أسباب رفض فكرة الحجاب عند العلمانيين العرب عنها عند الغرب، فعلمانيو العرب يرون في انتشار الحجاب رِدّة وتخلفًا ورجعية، بينما عند الغرب تُعتبر المنظومة العقدية للإسلام موضوعًا للحرب الصليبية الجديدة على العالم الإسلامي، فهي تولد العداء للآخر غير المسلم من وجهة النظر الغربية.

ليست قضية الحجاب مجرد قضية سُترة رأس تغطي شعر المرأة المسلمة في المدارس والإدارات الغربية، بل هي الشجرة التي تُخفي الغابة الكبرى، وما هذه الغابة إلا التدافع المتعدد الساحات والواجهات بين الإسلام والغرب: تدافع ثقافي سلمي أحيانًا، وعسكري حربي أحيانًا أخرى.

أفكار ومقتطفات

- كل فئات الأمة، وكل رجالها ونسائها، يعلمون أنه يجب شرعًا على جميع نساء المؤمنين التزام الحجاب الشرعي، متأسّين في ذلك بالإجماع العملي من نساء المؤمنين من عصر النبي صلى الله عليه وسلم، مرورًا بكل عصور الأمة.

- كانت حدة التصريحات مرتفعة في البلاد العربية التي تمكنت فيها العلمانية من مفاصل الدولة مثل تونس، وخفت الحدة في الدول التي للعلمانية فيها جذور لا يُستهان بها مثل مصر.

- «إذا قبلنا اليوم الحجاب فقد نقبل غدًا أن تحرم المرأة من حقها في العمل والتصويت، وأن تُمنع من الدراسة، وأن تكون فقط أداة للتناسل وللقيام بالأعمال المنزلية، فذلك سيعيق تقدمنا فنتراجع إلى الوراء، وننال من أحد المقومات الأساسية التي يقوم عليها استقرار المجتمع، وتقدم الشعب ومناعة البلاد». (الأمين العام لحزب التجمع الدستوري الديمقراطي التونسي)

- اعتبر الرئيس الفرنسي جاك شيراك ارتداء تلميذات المدارس الحجاب الإسلامي «أمرًا عدوانيًّا».

- كان التركيز الغربي على مصر شديدًا، سواء في استهدافها بداية بالاحتلال العسكري، كما في الحملة الفرنسية وغزوة فريزر، أو في استهدافها بالغزو الفكري والثقافي. وهكذا كانت مصر هي البداية للهجوم على الحجاب.

- في بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وبعد سنوات قليلة من الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ صدر كتاب «المرأة في الشرق»، وكان مؤلفه محاميًا مسيحيًّا مصريًّا، كان صديقًا للورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر، وكان يُدْعى مرقص فهمي. وقد دعا هذا الكتاب للقضاء على الحجاب باعتباره حجابًا للعقل.

- ظهرت العديد من الشخصيات النسائية اللاتي دافعن عن «حق» المرأة في الحياة بدون حجاب، وأخذن يروجن لتحرير المرأة من كافة قيودها، وعلى رأسها الحجاب.

- المورد الذي غذى ظاهرة الهجوم على الحجاب في عالمنا العربي والإسلامي ليس موردًا مستقلاً خاصًّا بذاته، وإنما كان هذا المورد هو العلمانية والإطار العلماني العام الذي تم إحلاله تدريجيًّا.

- كان الاستعمار حريصًا على تغيير مناهج التعليم في البلاد التي احتلها؛ وذلك من أجل إعادة صياغة العقول الناشئة على المرجعية الأوروبية المادية وغير الدينية.

- مثَّلت ظاهرة ابتعاث الطلاب العرب والمسلمين إلى البلاد الأوروبية بعد فترة الاستقلال رافدًا أساسيًّا في تغذية وتثبيت العلمانية في العالم العربي والإسلامي.

- رغم الضغط السياسي العلماني المتواصل ضد الحجاب، والذي يوظف ما في أيدي العلمانيين من مراكز سياسية، ومن مؤسسات ثقافية وفكرية، ومن وسائل إعلامية، ظل الحجاب - والنقاب- منتشرًا في مجتمعات المسلمين حتى العشرينيات من القرن العشرين.

- الرؤوس التي يغطيها الحجاب باتت أكثر من نظيرتها غير المحجبة، إلى الحد الذي يدفع ببعض الطلاب إلى القول: إن الفتاة غير المحجبة غالبًا ما تكون مسيحية وليست مسلمة، وإن القاعدة العامة باتت للحجاب في الجامعات.

- انعكست ظاهرة الحجاب في الشارع المصري حتى وصلت إلى شواطئ الاصطياف.

- إذا كان الحجاب داخل العالم العربي والإسلامي يشكل واجبًا دينيًّا مفروضًا على المرأة بالنص؛ لذلك فهي مأمورة بارتدائه، كي تحجب عن عيون الرجال أنوثتها، التي قد تسبِّب الفتنة، والتي تترتب عليها نتائج غير مقبولة دينيًّا وأخلاقيًّا وثقافيًّا، فإن الحجاب في العالم الغربي لا يقف عند هذا الجانب، بل يتجاوزه إلى جوانب أخرى.

- إن فرنسا تتوقع من المهاجرين إليها أن يتبنوا أسلوب الحياة الفرنسي، وليس أن تتبنى فرنسا عادات المهاجرين وثقافاتهم، أي أن قليلين فقط في فرنسا هم الذين يعتقدون أن التعددية الثقافية تمثل حلاً لمسألة الحجاب.

- يصر السياسيون الفرنسيون على أن الولاء للدولة الفرنسية ومبادئها العلمانية يأتي أولاً قبل أي شعائر دينية، ويعتقد أغلب النواب الفرنسيين أن الحل الوحيد يكمن في فرض قانون يُلزم بذلك.

- أصبح هناك تأفف في الجناح النسائي لحركات التحرر العربية من الحجاب، ومن النساء اللاتي يرتدين الحجاب، على أرضية أنهن رجعيات متخلفات جامدات.

- الملاحظ تاريخيًّا أن الحركة الإسلامية هي التي قادت وتقود النضال الوطني وحركة التحرر الوطني في بلادنا، وتفعل كل شيء، فهي تُقدم الثقافة، وتُصيغ الهوية والوجدان، وتعبئ الشارع، ولكنها تعجز في النهاية عن قطف الثمرة؛ حيث يقطفها العلمانيون بمساعدة الغرب الصليبي.

- ماذا تقول الحركة النسوية العربية العلمانية عن الصحوة الإسلامية التي عمت العالم العربي والإسلامي ابتداءً من النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، والتي كانت المرأة والفتاة حاضرتين فيها بكثافة عمت المدارس والجامعات والمصالح الحكومية والشوارع والمنازل.

- أبرز ملامح الخطاب النسوي المعاصر هو ازدراؤه لكل ما هو ثابت ومتفق عليه بحكم الشريعة، فيرى أن تعدد الزوجات، ونصيب المرأة من الميراث، وعِدَّة المطلقة أمورٌ تكشف عن انحياز الإسلام للرجل، وانتقاصه من حقوق المرأة، وفي أحسن الأحوال فإنها أمور لم تعد تتمشى مع عصرنا الحالي.

- ما الحرب التي خاضتها النسويات المصريات العلمانيات مؤخرًا حول ضرورة تدريس الثقافة الجنسية بالمدارس إلا خطوة أولى في سبيل تعميم مثل هذه الأفكار.
- إن العلمانيين يرون في انتشار ظاهرة الحجاب هزيمةً لهم، وإفشالاً لمخطط استهدافهم للمرأة المسلمة الذي حرصوا عليه من البداية.
- منـذ متـى كان التقدّم والحضـارة متعلّقَيْنِ بلباس الإنسـان؟! إنّ الحضارة والتقـدم والتطور كان نتيجةَ أبحاث توصَّل إليها الإنسان بعقله وإعمالَ فكره، ولم تكن بثوبه ومظهره.
- المنظومة العقدية للإسلام تمثل موضوعًا للحرب الصليبية الجديدة على العالم الإسلامي.
- إن الأفـكار الأمريكيـة مثلاً عن الإصـلاح الديمقراطي، وعن حرية المرأة، وعـن تغيير مناهج التعليم، وعن الخطاب الديني الجديد، وعن الحجاب والاختلاط ونظم الأسـرة والأحوال الشخصية؛ جميعها ذات طابع مدني تحمل روح الأفكار الأمريكية إلى العالم، أو رسالة أمريكا إلى العالم، وبناءً على ذلك؛ فإن أمريكا تريد تفكيك ما لديك لتتبع أنت ما عندها.

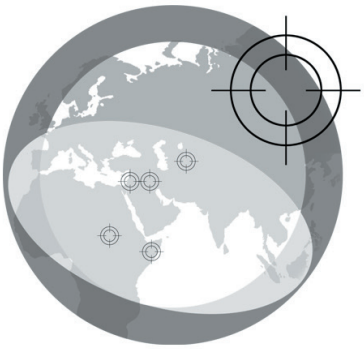

ظاهرة الهجوم على الحجاب

د/ ليلى بيومي – مصر

كاتبة إسلامية

مقدمة:

لسنا معنيين في هذه المقدمة بمناقشة أدلة فرضية الحجاب، وإنما ننطلق من أساس مبدئي، وهو أن الأمر معلوم بالضرورة من دين الله سبحانه وتعالى، وأنه لم يشذ أحد من علماء الأمة عبر تاريخ المسلمين الممتد عن هذا الإجماع.

فقد أجمع علماء الأمة طيلة خمسة عشر قرنًا من الزمان على أن المرأة تغطي جميع جسمها سوى الوجه والكفين، وإلا فهي مخالِفة لأمر ربها معانِدة له. وذهب فقهاء آخرون إلى أن هذا القدر لا يكفي، وأوجب على المرأة أن تستر الوجه والكفين أيضًا.

ولم يذهب الفقهاء إلى هذا الإجماع إلا عن أدلة رصينة محكمة تؤكد هذا الحكم.

وكل فئات الأمة، وكل رجالها ونسائها، يعلمون أنه يجب شرعًا على جميع نساء المؤمنين التزام الحجاب الشرعي، متأسين في ذلك بالإجماع العملي من نساء المؤمنين من عصر النبي صلى الله عليه وسلم، مرورًا بكل عصور الأمة حتى الآن، بدلالة صحيح الأثر، والقياس المطرد، وبصحيح الاعتبار بجلب المصالح ودرء المفاسد.

الخلاف الموجود إذن في هذه القضية إنما هو نوعان مختلفان:

النوع الأول: خلاف بين الفقهاء على قولين: هل يجوز كشف الوجه والكفين أم لا يجوز؟، فهناك جانب من الفقهاء قال بعدم الجواز، بينما رأى آخرون جواز كشف الوجه والكفين.

والنوع الثاني من الخلاف: هو بين جماهير المسلمين وبين العلمانيين الذين يثيرون الشكوك والشبهات، ويقولون: إن أدلة فرضية الحجاب غير ثابتة، وبالتالي فإنه غير واجب، وهذا تشغيب لا قيمة له ولا اعتبار.

منهج البحث:

ونحن في هذا البحث ندرس هذه القضية من خلال سبع زوايا رئيسية.

فنحاول توثيق ظاهرة الهجوم على الحجاب عن طريق عرض جانب من التصريحات الرسمية، سواء في العالم العربي أو في الغرب، التي تهاجم الحجاب في أيامنا هذه، والتي تُعبر عن هجوم صريح غير قابل للتأويل.

ثم نحلل الظاهرة في أبعادها المختلفة: التاريخية، والسياسية، والفكرية، ثم تأثير هذه الأبعاد على المستوى الاجتماعي في البلاد العربية والإسلامية.

ونتوقف أمام كون الحجاب قضية رمزية تختزل مجموعة أخرى من القضايا والصراعات، ونناقش أسباب رفض حركة التحرر الوطني في بلادنا العربية،

وخاصة الجانب النسوي منها، اعتبار الحجاب أحد مظاهر هذه الحركة على مستوى تأكيد الهوية ورفض التبعية للهيمنة الغربية.

ونتعرض لتأثيرات قضية الحجاب على الجاليات الإسلامية في المجتمعات الغربية التي تعيش فيها، وندرس أسباب رفض العلمانيين العرب للحجاب، ونختم بأسباب رفض الغرب المسيحي لهذا الزي الإسلامي.

أولاً: توثيق ظاهرة الهجوم على الحجاب:

أ- في العالم العربي:

امتدت ظاهرة الهجوم على الحجاب لتشمل قيادات سياسية وإعلامية وفكرية مختلفة، وكانت حدة التصريحات مرتفعة في البلاد العربية التي تمكنت فيها العلمانية من مفاصل الدولة، مثل تونس، وخفَّت الحدة في الدول التي للعلمانية فيها جذور لا يُستهان بها مثل مصر، لكن للثقافة الإسلامية فيها مكان واعتبار. أما في دول الخليج واليمن، فلم يكن للظاهرة وجود ظاهر؛ بسبب ما تمثله الثقافة الإسلامية والزي الإسلامي من إطار تقليدي يحكم هذه المجتمعات ويسيطر عليها.

امتدت ظاهرة الهجوم على الحجاب لتشمل قيادات سياسية وإعلامية وفكرية مختلفة، وكانت حدة التصريحات مرتفعة في البلاد العربية التي تمكنت فيها العلمانية من مفاصل الدولة

وعلى هذا الأساس؛ فإن من أواخر التصريحات التي هاجم فيها الرئيس التونسي الحجاب، دعوته إلى تكريس الاحتشام وفضيلة الحياء، ومطالبته بالتفريق بين الاحتشام و«الزي الطائفي»، في إشارة ضِمْنية إلى الحجاب.

وقال الرئيس التونسي: «إن تونس المتمسكة على الدوام بإسلامها الحنيف حريصة على تكريس قيمة الاحتشام وفضيلة الحياء، وهي تعتبر تقاليدها في الملبس في المدن والأرياف كفيلة بتحقيق ذلك».(١)

ويأتي موقف بن علي ليدعم تصريحات الهادي مهني، الأمين العام لحزب «التجمع الدستوري الديمقراطي» الحاكم، الذي عبَّر عن رفضه ارتداء «الزي الطائفي الذي لا علاقة له بهوية البلاد وأصالتها، وينال مما تحقَّق للمرأة التونسية من مكاسب».

وقوله: «إذا قبلنا اليوم الحجاب فقد نقبل غدًا أن تُحْرَم المرأة من حقها في العمل والتصويت، وأن تُمْنَع من الدراسة، وأن تكون فقط أداة للتناسل، وللقيام بالأعمال المنزلية، فذلك سيعيق تقدمنا فنتراجع إلى الوراء، وننال من أحد المقومات الأساسية التي يقوم عليها استقرار المجتمع، وتقدم الشعب ومناعة البلاد».(٢)

كما اعتبر وزير الشئون الدينية التونسي الحجاب، «ظاهرة دخيلة» على تونس، و«نشازًا» و«زيًّا طائفيًّا» و«ظاهرة غير مقبولة في تونس».(٣)

وتطبيقًا عمليًّا لهذه التصريحات منعت السلطات التونسية عددًا من طالبات التعليم الثانوي من دخول امتحانات نهاية العام؛ بسبب ارتدائهن للحجاب.

وعلى سبيل المثال منعت إدارة معهد «القنال» الثانوي بمدينة بنزرت (٦٠ كيلو مترًا شمال العاصمة تونس) ٣٨ طالبة من دخول الامتحان.(٤)

وإذا كانت تونس هي النموذج الأكثر حِدة في توجهه العلماني، فإن مصر هي الأخرى، لها توجه علماني لا تنكره، وإن كان أقل حدة من النموذج التونسي، بل وتعتز الدولة المصرية بهذا التوجه العلماني الذي أسّسه محمد علي.

ومن هذا التوجه انطلق وزير الثقافة المصري فاروق حسني في هجومه على الحجاب، والذي هز أرجاء مصر، بل والعالم العربي كله، حيث قال: «إنه يرى أن الحجاب عودة للوراء، وأن النساء بشعورهن الجميلة كالورود، لا يجب تغطيتهن».

وتناقلت وكالات الأنباء الخبر الذي تسبب في ردود فعل عنيفة، وعاود فاروق حسني تأكيد رأيه

في تصريح آخر نشرته نفس الصحيفة التي نشرت تصريحه الأول وقال: «لو كانت لي زوجة لمنعتها من ارتداء الحجاب». (٥)

وعلى إثر الضجة التي أثارتها تصريحات الوزير، أجرت قناة «المحور» حوارًا معه في برنامج «٩٠ دقيقة»، أكّد فيه تمسكه برأيه الشخصي، وقال: «أنا لا أحب الحجاب مثلما أقول إنني لا أحب أي شيء آخر، واصفًا الحجاب بأنه زيّ طائفيّ، يهدد سلامة الوحدة الوطنية، وبأنه تخلُّف؛ لأنه كان عادة قديمة في الماضي ونحن نستعيدها اليوم». (٦)

ب- في الغرب:

وعلى المستوى الغربي، اعتبر الرئيس الفرنسي جاك شيراك ارتداء تلميذات المدارس الحجاب الإسلامي «أمرًا عدوانيًّا»، وأعرب عن قلقه إزاء ظاهرة الأصولية الإسلامية مع تزايد الميل العام في فرنسا لحظر كل الرموز الدينية في المدارس العامة.

وقال شيراك -خلال زيارته لتونس لحضور قمة خمسة زائد خمسة الأوروبية المتوسطية-: إن الحكومة الفرنسية ذات النظام العلماني الصارم لا يمكنها السماح لطالبات يرتدين ما اعتبره «علامات للتباهي بالاهتداء الديني»، مضيفًا أنه يرى «عدوانية ما» في ارتداء الحجاب. (٧)

وفي ألمانيا، حظرت السلطات في ولاية نورث رين وستفاليا الألمانية على المدرّسات المسلمات ارتداء الحجاب في المدارس الرسمية.

وأقرت الجمعية الوطنية في الولاية -التي تعتبر الأكبر من حيث عدد السكان- قانونًا في هذا الصدد من دون تسمية الحجاب بالنص. (٨)

كما انضمت ولاية بافاريا الواقعة في جنوب ألمانيا إلى قائمة الولايات التي قررت منع المدرسات من ارتداء الحجاب، والتي تضم: سكسونيا السفلى، وبادين فيرتيمبرج، وسارلاند. وأقر برلمان بافاريا قانونًا يمنع المدرسات من ارتداء الحجاب بعد الاستماع إلى وزيرة الثقافة الألمانية مونيكا هولمير التي قالت: «إن الحجاب رمز لإخضاع المرأة».

وأضافت هولمير «إن الحجاب تحول إلى رمز سياسي تسيء استخدامه الجماعات الأصولية الإسلامية»، وأنها ترى «أن الحجاب لا يتماشى مع مبادئ الديمقراطية والمساواة والتسامح». ولم يتضمن القانون الجديد حظرًا على ارتداء الرموز الدينية الأخرى. (٩)

وفي هولندا، قال رئيس اللجنة البرلمانية للحزب اليميني بمدينة «روتردام» الهولندية «سور يمسين»: إن الحجاب يعد وفقًا للقرآن رمزًا يميز المؤمنات عن غيرهن، بمعنى أن الحجاب رسالة موجهة إلى المجتمع الهولندي محتواها أن من ترتدي الحجاب مؤمنة، والأخريات أقل مستوًى من الإيمان، مما يفتح المجال أمام العنصرية الدينية، كما يصفها. (١٠)

ثانيًا: تحليل الأبعاد المختلفة لظاهرة الهجوم على الحجاب:

أ- البعد التاريخي للظاهرة:

كان التركيز الغربي على مصر شديدًا، سواء في استهدافها بداية بالاحتلال العسكري، كما في الحملة الفرنسية وغزوة فريزر، أو في استهدافها بالغزو الفكري والثقافي. وهكذا كانت مصر هي البداية للهجوم على الحجاب، وبالتالي جاءت الدعوة إلى رفض الحجاب، واعتباره من الموروثات الاجتماعية التي يجب تحرير المرأة منها وليس من الفروض الإسلامية.

وانطلقت هذه الدعوة منذ عهد محمد علي باشا، وتحديدًا منذ عام ١٨٢٦ الذي شهد إرسال البعثات المصرية إلى فرنسا، إلا أن دعوة محمد علي لم تلق قبولاً ولا تأييدًا من علماء المسلمين، ولا من قِبَل المثقفين في مصر. وفي بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر وبعد سنوات قليلة من الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ صدر كتاب «المرأة في الشرق»، وكان مؤلفه محاميًا مسيحيًّا مصريًّا، كان

صديقًا للورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر، وكان يُدْعَى مرقص فهمي. وقد دعا هذا الكتاب للقضاء على الحجاب باعتباره حجابًا للعقل. وفي عام ١٨٩٤ صدر كتاب آخر لمناهضة الحجاب كان من تأليف كاتب فرنسي يُدْعَى الكونت داركور. وقد هاجم فيه المثقفين المصريين؛ لقبولهم الحجاب وصمتهم عليه، وفي عام ١٨٩٩ ظهر كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين الذي دعا فيه إلى سفور وجه المرأة، ورفع النقاب عنه؛ لأنه ليس من الإسلام في شيء، وقد حظي الكتاب -رغم الهجوم عليه من عامة المصريين- بتأييد عدد من الزعماء والمفكرين المصريين من بينهم أحمد لطفي السيد والزعيم سعد زغلول، وكان من بين المعارضين للكتاب الزعيم مصطفى كامل الذي وصف كتاب «تحرير المرأة» بأنه مهين لها، وبأنه يروج لأفكار البريطانيين. كما أصدر الاقتصادي المصري طلعت حرب كتابًا للرد على كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين كان عنوانه «تربية المرأة والحجاب» قال فيه: إن رفع الحجاب وإباحة السفور كلاهما أمنية تتمناها القوى الاستعمارية على مر العصور، وهو ما دفع بقاسم أمين إلى تأليف كتابه «المرأة الجديدة» عام ١٩٠٠ أكد فيه آراءه مستدلاً بآراء عدد من العلماء في الغرب.

ومع اندلاع ثورة عام ١٩١٩ التي شهدت بداية الحركة النسائية السياسية في مصر، عاد الحديث عن رفض الحجاب وحق المرأة في عدم ارتدائه. وكانت البداية في ميناء الإسكندرية عند عودة سعد باشا زغلول من منفاه في جزيرة سيشل حين قامت نور الهدى محمد سلطان الشهيرة بهدى شعراوي بنزع النقاب من على وجهها وتبعتها زميلتها سيزا نبراوي.

وفي عام ١٩٢٤ تأسس الاتحاد النسائي المصري برئاسة هدى شعراوي التي شجَّعت المصريات على خلع الحجاب، وقد مهَّد هذا الطريقَ لعقد مؤتمر الاتحاد النسائي العربي عام ١٩٤٤ في القاهرة، وحضرته عدد من النساء العربيات. وظهرت العديد من الشخصيات النسائية اللاتي دافعن عن «حق» المرأة في الحياة بدون حجاب، وأخذن يروجن لتحرير المرأة من كافة قيودها، وعلى رأسها الحجاب، ومنهن: سهير القلماوي، ودرية شفيق، وأمينة السعيد.(١١)

ب- البعد السياسي للظاهرة:

عندما اختفى الحجاب نسبيًّا من «الشارع الإسلامي» قبل عقود لم يكن ذلك نتيجة «فهم جديد» للدين الإسلامي، إنما كان اختفاؤه مرافقًا لتغييب النسبة العظمى من مظاهر تطبيق الإسلام في الحياة والحكم، عندما حاول فريق من أهل البلدان الإسلامية، من مسلمين وغير مسلمين، تصوير المخرج من التقهقر في الميادين العلمية والتقنية، وكأنه لا يتحقق دون الاستعاضة عن القيم الإنسانية التي رسَّخها الإسلام حضاريًّا وثقافيًّا على مستوى المسلمين، وعلى المستوى البشري بمنظومة مستوردة حافلة بالخلل، أوصلت الغرب في هذه الأثناء إلى أوباء اجتماعية خطيرة.

لم يكن اختفاء الحجاب في الماضي موقفًا سياسيًّا من جانب «المسلمات» في المجتمع الإسلامي، بل كان خطوة سياسية من جانب من تخلى عن الإسلام منهجًا للحياة والحكم.

إن كل مجلة من المجلات، وفيلم من الأفلام، ومقال من المقالات، وجمعية من الجمعيات، وحزب من الأحزاب، وغير ذلك من ألوان الفعاليات التي ظهرت في حقبة السيطرة العلمانية شبه المطلقة على صناعة القرار في البلدان الإسلامية، -هو في واقعه جزء من «سياسة» اتَّبعَتْها الدولة، واتَّبعَتْها الاتجاهات المهيمنة على الدولة، وعلى وجه التحديد التيارات العلمانية التي كان بأيديها وحدها صناعة القرار في مختلف الميادين، وفي غالبية بلاد المسلمين عبر عقود عديدة، وهذه «السياسة» هي التي ركَّزت بالوسائل السياسية، وعبر القرار السياسي، على دعم كل عمل من شأنه الدفع في اتجاه

التخلي عن الحجاب، وما يعنيه بالمنظور الإسلامي في حياة المرأة المسلمة، وفي العلاقات الاجتماعية، ودفع المجتمع نساء ورجالاً دفعًا للتحرك في طريق الانحلال والإباحية، والجهر بالموبقات الأخلاقية على اختلاف أنواعها. (١٢)

الذي نقصده من التأثير السياسي على قضية الحجاب يتضح من الأمثلة الآتية:

- في عام ١٩٩٦م كان رئيس الجمهورية التركية (سليمان ديميريل) في زيارة لألمانيا، وفي حفل استقباله تقدمت طفلة من أبناء الجالية التركية تحمل باقة ورد؛ لتهديها لرئيس بلادها، لكن العنجهية العلمانية تفجَّرت ساعتها ومنعوا الطفلة؛ لأنها كانت تضع حجابًا على رأسها.

- وعندما كان (نجم الدين أربكان) رئيسًا للوزراء في منتصف التسعينيات كان يتلقى معاملة سيئة إذا كانت زوجته المحجبة -عجوزًا تجاوزت الستين عامًا- معه في أي مناسبة عامة، وكانت تُمْنَع من حضور التجمعات الرسمية بوجود رئيس الجمهورية.

- هناك العديد من الحكايات المأساوية القديمة والجديدة التي تعكس الظلم والإرهاب الفكري الذي تلاقيه النساء في تركيا، بسبب الحجاب، فالعديد من النساء فُصلن من أعمالهن أو حُرمن من الدراسة بسبب الحجاب.

- وما تتعرض له النساء المحجبات في تونس من دخول المدارس والمعاهد التعليمية، بل والمستشفيات يصب في هذا الاتجاه.

ج- البعد الثقافي والفكري للظاهرة:

المورد الذي غَذّى ظاهرة الهجوم على الحجاب في عالمنا العربي والإسلامي ليس موردًا مستقلاً خاصًّا بذاته، وإنما كان هذا المورد هو العلمانية والإطار العلماني العام الذي تم إحلاله تدريجيًّا -وعلى مراحل في بلادنا العربية والإسلامية إبَّان فترة الاستعمار الغربي وما بعدها- محل الشريعة الإسلامية التي تحكم حركة التصورات والأفكار في المجتمع.

ومن هذا المنطلق كان الاستعمار حريصًا على تغيير مناهج التعليم في البلاد التي احتلها؛ وذلك من أجل إعادة صياغة العقول الناشئة على المرجعية الأوروبية المادية وغير الدينية.

فقد كان «دانلوب» هو أهم خبير ومستشار بريطاني في مصر، في فترة الاحتلال، من أجل هذا الغرض تحديدًا.

كان الاستعمار حريصًا على تغيير مناهج التعليم في البلاد التي احتلها؛ وذلك من أجل إعادة صياغة العقول الناشئة على المرجعية الأوروبية المادية وغير الدينية

ولعلّ المثال الواضح على تركيز الغرب على المناهج في بلاد المسلمين هو ما يوضحه الموقفان الغربيان الآتيان:

الموقف الأول: بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة، شنَّت الإدارة الأمريكية حملة شرسة ضد مناهج التعليم في السعودية ومصر وباكستان، وغيرها من الدول العربية والإسلامية، ومارست ضغوطًا شديدة على حكومات تلك الدول من أجل تغيير المناهج الدينية، حتى في المعاهد والجامعات العريقة المعروفة بالاعتدال، مثل جامعة الأزهر والجامعة الإسلامية في السعودية وباكستان.

الموقف الثاني: بمجرد سقوط نظام الرئيس العراقي السابق «صدام حسين»، ودخول القوات الأمريكية بغداد، كان أول ما فعلته إدارة الحاكم الأمريكي (بريمر) هو البدء في تغيير مناهج التعليم العراقية؛ من أجل تطويع العقلية العراقية الناشئة وفق الصياغة الأمريكية المرتجاة.

كما مثَّلت ظاهرة ابتعاث الطلاب العرب والمسلمين إلى البلاد الأوروبية بعد فترة الاستقلال رافدًا أساسيًّا في تغذية وتثبيت العلمانية في العالم العربي والإسلامي، فقد قامت الفكرة العلمانية في

بلادنا على أيدي هؤلاء العائدين من الغرب المنهزمين أمام ثقافته.

وهكذا وصلنا إلى بداية القرن التاسع عشر وظهور ما أطلق عليهم الفكر العلماني العربي «رواد التنوير» أمثال قاسم أمين، وأحمد لطفي السيد، وسلامة موسى، وطه حسين، بالإضافة إلى مدرسة الشام التي مثَّلها علمانيون مثل: فرح أنطون، وشبلي شميل، وجورجي زيدان... إلخ.

صفات السوء، وكان روّاد هذه المدرسة: هدى شعراوي، وسيزا نبرواي، ودرية شفيق، وأمينة السعيد وما تبعهن.

د- تأثر الواقع الاجتماعي العربي بالأبعاد السابقة:

ورغم الضغط السياسي العلماني المتواصل ضد الحجاب، والذي يوظف ما في أيدي العلمانيين من مراكز سياسية، ومن مؤسسات ثقافية وفكرية، ومن وسائل إعلامية، ظل الحجاب - والنقاب- منتشرًا

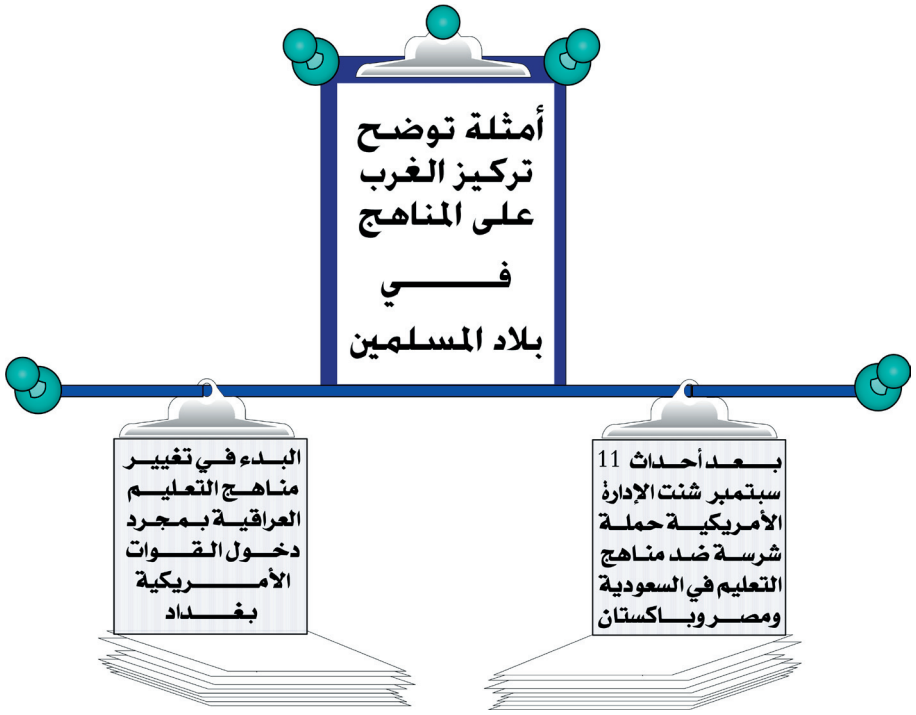

تركيز الغرب على المناهج في بلاد المسلمين

وكانت الرسالة الأساسية لهؤلاء هي الطعن في الإسلام والثقافة الإسلامية، ووصفها بالتخلف وعدم القدرة على بعث العرب والمسلمين من تخلفهم ورقادهم لدخول واقتحام آفاق النهضة والتنمية والتطور، والادعاء بأن الحل الوحيد أمامنا هو الاعتراف بالثقافة الغربية وجعلها هي المرجعية.

وعلى يد هؤلاء الرواد العلمانيين بدأت الحركة النسائية العربية العلمانية، التي جعلت معركتها الأساسية هي الهجوم على الحجاب، ووصفه بكل

في مجتمعات المسلمين حتى العشرينيات من القرن العشرين، عندما بدأت حركة السفور تظهر في تركيا الكمالية، ثم في مصر -على اختلاف درجة الحدة - قبل أن تنتشر إلى بلدان عديدة، ومع ذلك فقد ظلت مجتمعات إسلامية ملتزمة بالحجاب والنقاب على الطريقة القديمة حتى زمن عودة الحجاب.

ويشهد ارتداء الحجاب انتشارًا واسعًا، يكاد يشمل غالبية الفتيات في البلاد العربية والإسلامية، وبعض المسلمين في الغرب يصل حدًّا في بعض الجامعات

الإسلامية والعربية أن يكون جميع فتيات الفصل الدراسي أو قاعة المحاضرات ممن يرتدين الحجاب، وأصبح منظرًا مألوفًا وغالبًا على لباس الفتيات في شوارع هذه البلاد ومدنه ومؤسسات العمل فيه. (١٣)

والحجاب، على سبيل المثال، جعلته ٨٠٪ من النساء المصريات زيًّا لهن، كما تقول إحدى إحصائيات مركز المعلومات التابع لمجلس الوزراء. وليس خافيًا عن الأنظار أن ظاهرة انتشار الحجاب بين المصريات في السنوات العشرين الأخيرة جعلته القاعدة في الزي لا الاستثناء، خاصة في الأقاليم المصرية التي يصبح فيها الحجاب شيئًا طبيعيًّا مع بلوغ الفتاة سن الثانية عشرة على أكثر تقدير، ومن دون إجبار من الأسرة. ولا يختلف الحال كثيرًا في العاصمة المصرية القاهرة؛ خاصة في الأحياء الشعبية التي تزيد فيها نسبة الحجاب؛ وذلك لأسباب عدة من بينها ارتباط الحجاب بالعادات الاجتماعية، وما يتردد عن ضرورة ستر الفتاة لجسدها.

وفي الجامعات المصرية الآن تستطيع أن ترصد انتشار ظاهرة المحجبات في مدرجاتها التي يتلقى بها الطلاب دروسهم، فالرؤوس التي يغطيها الحجاب باتت أكثر من نظيرتها غير المحجبة إلى الحد الذي يدفع ببعض الطلاب إلى القول: إن الفتاة غير المحجبة غالبًا ما تكون مسيحية وليست مسلمة، وأن القاعدة العامة باتت للحجاب في الجامعات. (١٤)

وقد انعكست ظاهرة الحجاب في الشارع المصري، حتى وصلت إلى شواطئ الاصطياف، فشكل وطبيعة الشواطئ المصرية الآن تغير تمامًا عن ذي قبل، فاختفى المايوه، والفتيات والسيدات إما لا ينزلن البحر مطلقًا أو ينزلنه بكامل لباسهن، وأصبحت هناك شواطئ مغلقة لا يدخلها إلا العائلات. ولا يُسمح بوجود الرجال والنساء على الشاطئ في نفس الوقت، ولكن هناك ساعات للرجال وأخرى للنساء، أما الشباب فأصبح ستر العورة وارتداء الشورت الطويل أو البنطلون الكامل منظرًا لا تخطؤه عين. (١٥)

وما يحدث في مصر يحدث في العديد من الدول العربية، بفعل انتشار الصحوة الإسلامية، وظهور وسائل إعلام تنشر الثقافة الإسلامية، وتهتم بالقضايا الإسلامية، وتدعم بالتالي الحجاب.

ثالثًا: الحجاب قضية رمزية تختزل غيرها من القضايا:

يعتبر البعض الحجاب رمزًا سياسيًّا توظفه الجماعات الإسلامية في سعيها للوصول إلى السلطة، وتؤكد الطبقة السياسية في أوروبا على كونه رمزًا دينيًّا يتضمن تعديًا على العلمانية، كما يحسبه بعض الأمريكيين عنوانًا لإرهاب مرحلة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

لكننا نعتقد أن الادِّعاء بأن اللباس الشرعي هو رمز سياسي هو تحميل له بما لا يحتمل، والقول بأن الحجاب رمز سياسي إنما هو قراءة المخالف للحجاب، وتوظيف المخالف لهذا اللباس الشرعي لاتخاذ مواقف عدائية من اللباس الشرعي؛ باعتباره جزءًا من التدين الإسلامي، والتعبير كذلك عن الموقف العنصري من الدين الإسلامي.

ومن ثم يمكن القول بأن اللباس الشرعي هو أولاً: استجابة للفطرة الإنسانية، وثانيًا: هو مطلب ديني، أي أن الإنسان يستجيب لمتطلبات الدين من حيث إنه يتأدب مع الله في علاقته بجسده. وهذا مقابل لما هو موجود في المنظومة الغربية من حق العري، وحق المرأة في التصرف في جسدها.

ودعوى أن الحجاب رمز ديني دعوى مرفوضة؛ فالحجاب ليس رمزًا بحال؛ لأن الرمز ما ليس له وظيفة إلا التعبير عن الانتماء الديني لصاحبه، مثل الصليب على صدر المسيحي أو المسيحية، والقلنسوة الصغيرة على رأس اليهودي؛ فلا وظيفة لهما إلا الإعلان عن الهوية.

وهذا بخلاف الحجاب فإن له وظيفة معروفة، هي الستر والحشمة، ولا يخطر ببال من تلبسه من

المسلمات أنها تعلن عن نفسها وعن دينها «فحسب»، ولكنها تطيع أمر ربها. (١٦)

وللأسف فإن السائد الآن في الغرب، وفي الأوساط العلمانية العربية أن الحجاب رمز للاضطهاد الذي يمارسه الإسلام ضد المرأة، وهذه الصورة النمطية ما زالت سائدة في المجتمع الأوروبي كله.

وتتعجب كاتبة ألمانية قائلة: إنه لمن التناقض بمكان أن نسعى لتحرير المسلمات، وهن لا يرغبن في ذلك، إذا بإحداهن تذهب وتطالب المحكمة بالسماح لها بلبس الحجاب، أليس هذا الحجاب هو رمز اضطهاد المرأة على وجه الإطلاق؟

وتضيف الكاتبة: إن الحجاب له قصة طويلة، فقد صار بعد تولي الخميني الحكم في إيران عام ١٩٧٩، قضية الساعة أكثر من كونه غطاء على الرأس.

ولن نربط طبيعة الحجاب بدرجة الحرية التي تتمتع بها المرتديات له، فالحجاب لا يعتبر فقط رمزًا لاضطهاد الإسلام للمرأة المسلمة، بل أيضًا مثالاً على الكبت الذي يمارسه الإسلام بشكل عام. (١٧)

رابعًا: الحجاب عامل مؤثر في علاقات الجاليات المسلمة في الغرب بمجتمعاتها:

ارتداء الحجاب في حياة النساء المسلمات في الغرب يشكل تحديًا كبيرًا؛ حيث النظرة أو الموقف من المرأة المتحجبة في شوارع أمستردام ليست هي نفسها في شوارع القاهرة أو بيروت، أو غيرهما من العواصم والمدن الإسلامية، فإذا كان الحجاب داخل العالم العربي والإسلامي يُشكِّل واجبًا دينيًّا مفروضًا على المرأة بالنص؛ لذلك فهي مأمورة بارتدائه، كي تحجب عن عيون الرجال أنوثتها، التي قد تسبِّب الفتنة، التي تترتب عليها نتائج غير مقبولة دينيًّا وأخلاقيًّا وثقافيًّا، فإن الحجاب في العالم الغربي لا يقف عند هذا الجانب، بل يتجاوزه إلى جوانب أخرى؛ حيث يصبح طرفًا مهمًّا في المعركة الجديدة الدائرة رحاها بين الإسلام والغرب، وتصبح معه المرأة المسلمة المتحجبة في عين الآخر، رافعة لراية التحدي، ما دامت أنها - كما يتخيل البعض- تتطاول على القيم الغربية الداعية إلى الحرية والمساواة والديمقراطية، ولا ترضخ لأوامر العديد من المؤسسات الحكومية والتعليمية وغيرها، التي تفرض عليها التخلي عن لباسها الإسلامي، حتى تنال حظها الوافر من الحقوق.

ومن هذه الزاوية تنظر هذه المؤسسات، وكل من يجري مجراها، من إعلاميين وسياسيين ومثقفين وناس عاديين، إلى هذا الرفض من قِبل المرأة المسلمة، لكل ما يهدد شكل لباسها باعتباره مقوّمًا هامًّا من مقومات هويتها الدينية، على أنه تحدّ للثقافة الغربية، وخروج عن الخط العلماني الذي اختارته المجتمعات الغربية منذ الثلث الأول من القرن المنصرم. (١٨)

ولا يمكن أن نفهم جوهر ما يجري هذه الأيام في القارتين الأوروبية والأمريكية عامة، من حملة إعلامية وسياسية واسعة ضد ارتداء الحجاب على أنه قضية خاصة بقطعة ثوب صغيرة تستر بها النساء والفتيات المسلمات شعور رؤوسهن فحسب، بل إن الأمر يتجاوز مجرد ثوب صغير إلى قضية أكبر من ذلك. وليست تلك القضية سوى الحضور الإسلامي في الغرب. لقد تجاوزت الحملة مسألة الثوب إلى الإسلام دينًا وحضارة وسياسة وتمثيلاً، سواء في بلاده الأصلية، حيث سطع نوره المبين، ثم تمدد من جزيرة العرب إلى الصين شرقًا وفرنسا غربًا، أو في بلاد النصرانية والعلمانية؛ كما هو واقع في هذا الزمان، لا يمكن أن نفهم جوهر الحملات المتتالية الموجات، إلا باستحضار الوجود الإسلامي القديم والحديث في قلب الديار الغربية، وليست قضية الحجاب مجرد قضية سترة رأس تغطي شعر المرأة المسلمة في المدارس والإدارات الفرنسية، بل هي الشجرة التي تُخفي الغابة الكبرى. وما هذه الغابة إلا التدافع المتعدد الساحات والواجهات بين الإسلام

والغرب: تدافع ثقافي سلمي أحيانًا، وعسكري حربي أحيانًا أخرى. (١٩)

إن الغرب الذي يتغنى بالحريات والتعدد العرقي والثقافي، شديد الحساسية وغير متسامح في شأن الحجاب، وهو يصر على أن تكون المحجبات- كما المسلمون المقيمون في دياره عامة- منصاعات تمامًا لقِيَمِه وثقافته وإطاره النفسي والاجتماعي. وعلى سبيل المثال فإن فرنسا تتوقع من المهاجرين إليها أن يتبنوا أسلوب الحياة الفرنسي، وليس أن تتبنى فرنسا عادات المهاجرين وثقافاتهم، أي أن قليلين فقط في فرنسا هم الذين يعتقدون أن التعددية الثقافية تمثل حلاً لمسألة الحجاب.

إن الغرب الذي يتغنى بالحريات والتعدد العرقي والثقافي، شديد الحساسية وغير متسامح في شأن الحجاب

وبدلاً من ذلك يصر السياسيون الفرنسيون على أن الولاء للدولة الفرنسية ومبادئها العلمانية يأتي أولاً قبل أي شعائر دينية. ويعتقد أغلب النواب الفرنسيين أن الحل الوحيد يكمن في فرض قانون يُلزم بذلك. (٢٠)

خامسًا: الحركات النسوية العربية ومعاداة الحجاب:

تسود حياتنا الثقافية منذ فترة ليست بالقصيرة، وبتأثير وتوجيه أجهزة الإعلام العربية الرسمية ذات الصبغة العلمانية، ومعها غالبية مؤسسات الثقافة العربية الرسمية أيضًا ذات الاتجاه المعادي للإسلام، فكرة تؤكد أن حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار في العالم العربي إنما هي حركات علمانية، لم يكن التوجه الإسلامي حاضرًا فيها، وبالتالي لم يكن للمرأة المسلمة التي ترتدي الحجاب الإسلامي أي دور في هذه الحركات.

وأصبح هناك تأفف في الجناح النسائي لحركات التحرر العربية من الحجاب، ومن النساء اللاتي يرتدين الحجاب، على أرضية أنهن رجعيّات متخلفات جامدات، يعتنقن ثقافة متخلفة تحتقر المرأة، وتريد أن تعزلها عن واقعها، وبالتالي فلا يحق للحجاب أن يكون رمزًا لمعركة التحرر والانعتاق من الاستعمار ومن التخلف.

ونحن نؤكد أن الملاحظ تاريخيًّا أن الحركة الإسلامية هي التي قادت وتقود النضال الوطني وحركة التحرر الوطني في بلادنا، وتفعل كل شيء، فهي تقدم الثقافة، وتصيغ الهوية والوجدان، وتعبئ الشارع، ولكنها تعجز في النهاية عن قطف الثمرة، حيث يقطفها العلمانيون بمساعدة الغرب الصليبي. (٢١)

لقد شهدت الساحة الفلسطينية على سبيل المثال سيطرة للفكر القومي واليساري والوطني على حركتها الوطنية المعاصرة، حتى بدء الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧)، حيث تشكلت منظمة التحرير الفلسطينية التي قادت مسيرة التحرر الوطني من فصائل: قومية، ويسارية، ووطنية علمانية، إلا أن هذه الساحة سرعان ما شهدت عودة الصحوة الإسلامية على المستوى السياسي والحزبي في منتصف السبعينيات وخلال الثمانينيات، على غرار ما حدث في الأردن ومصر والجزائر وتونس وسوريا والسودان. (٢٢)

ومنذ أن عرف النضال الفلسطيني مشاركة الفصائل الفلسطينية فيه، أخذ دفعة قوية في مستوى التصدي للمشروع الصهيوني، ورأينا عطاءً بلا حدود من المرأة الفلسطينية التي ترتدي الحجاب؛ لدرجة أن الكثيرات من نساء فلسطين المحجبات ضحين بأنفسهن ونفذن عمليات استشهادية أدهشت العالم.

فكيف سيتم تقييم هذه التجارب من النضال الوطني من جانب الحركة النسائية العربية العلمانية، أليس هذا منتهى النضال؟

وعلى صعيد الحركة النسائية المصرية، فقد كانت مشاركة المرأة المصرية حاضرة في ثورة ١٩١٩،

وكانت كل النساء ترتدين الحجاب، ولم يكن هناك متبرجة واحدة. فكيف بعد ذلك تدعي الحركة النسائية العربية أنه لم تكن هناك مشاركة نسائية إسلامية في حركة التحرر المصرية؟

ثم هل يستطيع أحد أن ينكر الدور الذي لعبته المناضلة زينب الغزالي في الحركة الوطنية المصرية، سواء في جمعيتها الخاصة قبل انضمامها للإخوان المسلمين، أو في قسم الأخوات المسلمات بعد التقائها بالشيخ حسن البنا وانضمامها للإخوان المسلمين؟

ثم ماذا تقول الحركة النسوية العربية العلمانية عن الصحوة الإسلامية التي عمت العالم العربي والإسلامي؛ ابتداءً من النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، والتي كانت المرأة والفتاة حاضرتين فيها بكثافة عمت المدارس والجامعات والمصالح الحكومية والشوارع والمنازل، ولدرجة أنها انتقلت إلى مذيعات التليفزيون، بل وإلى أعداد كبيرة من الفنانات؟

ماذا تقول هذه الحركة النسائية العلمانية في الفعاليات التي قادتها واشتركت فيها المحجبات؛ مطالبات بالتصدي للهجمة الأمريكية الصهيونية على بلادنا، والتصدي لمخططات تجزئة الأمة وتفتيتها، ورفض ما يحدث من مؤامرات في البلاد العربية والإسلامية؟ وماذا تقول هذه الحركة في الإسهامات الثقافية والإعلامية للمرأة داخل تيارات الصحوة الإسلامية؟ أليس ذلك كله نضالاً وطنيًّا؟ أم أن النضال الوطني في نظرهن هو التبرج ومهاجمة الإسلام، والانبطاح أمام إفرازات الإعلام الغربي والثقافة الغربية والفكر الغربي عمومًا؟ مَنْ إذًا أَحَقُّ بريادة النضال الوطني النسائي العربي: المرأة المسلمة التي ترتدي الحجاب، والتي تتصدى لموجة العولمة الغربية؟ أم المرأة العربية المتبرجة والمنبطحة أمام هذه الموجة؟

إن أبرز ملامح الخطاب النسوي المعاصر هو ازدراؤه لكل ما هو ثابت ومتفق عليه بحكم الشريعة، فيرى أن تعدد الزوجات، ونصيب المرأة من الميراث، وعِدَّة المُطَلَّقَة أمورٌ تكشف عن انحياز الإسلام للرجل، وانتقاصه من حقوق المرأة، وفي أحسن الأحوال فإنها أمور لم تعد تتمشى مع عصرنا الحالي.

إن أبرز ملامح الخطاب النسوي المعاصر هو ازدراؤه لكل ما هو ثابت ومتفق عليه بحكم الشريعة

وفي الوقت الذي يحمل فيه الخطاب النسوي على الحجاب باعتباره رمزًا للستر والعفاف نجده لا يألو جهدًا في الترويج لأطروحات المنظمات النسوية الغربية المتعلقة بالحرية الجنسية للمرأة، ومشروعية ممارستها للجنس بدون زواج، إلى غير ذلك من الأفكار الخارجة عن السياق الدينيّ والقِيَمِيّ والخُلُقيّ لعالمنا العربي والإسلامي. وما الحرب التي خاضتها النسويات المصريات العلمانيات مؤخرًا حول ضرورة تدريس الثقافة الجنسية بالمدارس إلا خطوة أولى في سبيل تعميم مثل هذه الأفكار. (٢٣)

سادسًا: أسباب رفض العلمانيين العرب للحجاب:

إن هؤلاء الذين يرون في انتشار الحجاب رِدّة وتخلفًا ورجعية يؤمنون بأن سفور النساء المسلمات وتقليدهن في الزي لغيرهن من نساء المجتمعات الأخرى هو اختراق مهم ونجاح، أي أن العلمانيين يرون في انتشار ظاهرة الحجاب هزيمة لهم، وإفشالاً لمخطط استهدافهم للمرأة المسلمة الذي حرصوا عليه من البداية.

ومن أساليب الرفض العلماني للحجاب، وصف العلمانيين للحجاب بأنه إهانة للمرأة وحجاب للعقل، ونسوا أننا أمة فيها عشرات الملايين من الرجال (غير المحجبين)، ومع ذلك فهم معدومو القيمة بين الأمم، فلا الحجاب إهانة للمرأة، ولا عدم ارتداء الحجاب دليل على أن هناك حرية وعقل.

ولا يَخْلُ الأمر من اللمز والغمز العلماني بأن ارتداء الحجاب لا يعني شهادة لمن ترتديه بالعفة

والشرف، وأن ليس كل السافرات بالسوء الذي يُراد الإيحاء به. والحق أن الحجاب ليس من قبيل الشك بالمرأة، ولكنه حماية لها ممن يظنون أن كل امرأة سافرة سهلة المنال، فهو إذن حماية للمرأة في المقام الأول، وفي الغالب فإن الذكور المنحرفين تستهويهم النساء السافرات لا المحجبات، أو يتشجعون بسبب المساحة المكشوفة لهم. وإذا كان هذا هو ما لدينا من رد عقلي على حجة عقلية، فإن حكمة المولى سبحانه وتعالى أعظم، وفيها من جوانب العظمة الكثير مما لا ندركه، فحسبنا أننا ننفذ أوامر ربنا وتعاليم ديننا. (٢٤)

ويقول العلمانيون المعارضون للحجاب أيضًا: إن الحجاب كان من عادات العرب في الجاهلية؛ لأنّ العرب طُبعوا على حماية الشّرف، ووأدوا البنات خوفًا من العار، فألزموا النساء بالحجاب؛ تعصبًا لعاداتهم القبلية التي جاء الإسلام بذمّها وإبطالها، حتى إنّه أبطل الحجاب، فالالتزام بالحجاب رجعية وتخلّف عن ركب الحضارة والتقدم.

وإذا كانت النساء المسلمات راضياتٍ بلباسهن الذي لا يجعلهن في زُمْرة الرجيعات والمتخلفات فما الذي يضير التقدميين في ذلك؟! وإذا كنّ يلبسن الحجاب ولا يتأفّفن منه فما الذي حشر التقدميين في قضية فردية شخصية كهذه؟! ومن العجب أن تسمع منهم الدعوةَ إلى الحرية الشخصية وتقديسها، فلا يجوز أن يمسّها أحد، ثم هم يتدخّلون في حرية غيرهم في ارتداء ما شاؤوا من الثياب.

ثم إنّ التخلف له أسبابه، والتقدم له أسبابه، وإقحام شريعة الستر والأخلاق في هذا الأمر خدعة مكشوفة، لا تنطلي إلا على متخلّف عن مستوى الفكر والنظر، ومنذ متى كان التقدّم والحضارة متعلّقَيْنِ بلباس الإنسان؟! إنّ الحضارة والتقدم والتطور كانَ نتيجةَ أبحاث توصَّل إليها الإنسان بعقله وإعمال فكره، ولم تكن بثوبه ومظهره.

حجج العلمانيين في هذا الصدد كثيرة، ولكنها واهية وغير منطقية، وغير عقلانية، ويمكن تفنيدها بسهولة، وهي حجج تنطلق أساسًا من قاعدة الفكر العلماني الرافض للدين والأسس والقواعد التي يقوم عليها الدين الإسلامي.

سابعًا: أسباب رفض الغرب للحجاب:

وبالنسبة للغرب فإن المنظومة العقدية للإسلام تمثل موضوعًا للحرب الصليبية الجديدة على العالم الإسلامي، فهي منظومة من وجهة النظر الغربية تولد العداء للآخر غير المسلم. إنهم يريدون إلغاء كل ما يتصل بمفاهيم الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبراءة من الكفر وأهله؛ أي أن مفهوم الكوكبة والعولمة هو بالأساس مفهوم ثقافي يريد أن يفرض على العالم المفهوم الديني الغربي الأمريكي فقط. وليس شرطًا أن يفرض عليك مفاهيم صليبية كما يفعل المنصِّرون، وإنما يفكك ما تتمسك أنت به، وهذه معركته الكبرى وأرض المواجهة الحقيقية والمدافعة بين الحق والباطل.

إن الأفكار الأمريكية مثلاً عن الإصلاح الديمقراطي، وعن حرية المرأة، وعن تغيير مناهج التعليم، وعن الخطاب الديني الجديد، وعن الحجاب والاختلاط ونظم الأسرة والأحوال الشخصية؛ جميعها ذات طابع مدني تحمل روح الأفكار الأمريكية إلى العالم، أو رسالة أمريكا إلى العالم، وبناءً على ذلك؛ فإن أمريكا تريد تفكيك ما لديك لتتبع أنت ما عندها.

ونحن نتساءل: ما الذي يفيد أمريكا في أن تبقى المرأة محجبة، أو أن تمارس تقدمها وتطورها وهي غير مختلطة بالرجال؟ وما الذي يجعل أمريكا تصر على إعادة بناء قوانين الأحوال الشخصية في العالم الإسلامي؟ لماذا تتدخل السياسة الأمريكية في العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة لدى المسلمين فقط؟ لماذا تمثل المرأة المسلمة محورًا للاهتمام الأمريكي؟

الإجابة على هذه الأسئلة تكشف عن حقيقة يتبناها الفكر الغربي، وهي أنه لكي تغير أمة أو شعبًا فإن مفتاح التغيير هو المرأة. (٢٥)

الهوامش:

(١) رويترز- إسلام أون لاين.نت، ١١/ ١٠/ ٢٠٠٦ م.
(٢) وكالة الأنباء الفرنسية، ٥ / ١٠ / ٢٠٠٦ م.
(٣) جريدة الصباح التونسية، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٥م.
(٤) قدس برس، إسلام أون لاين.نت ، ٣١/ ٥/ ٢٠٠٣م.
(٥) المصري اليوم، ١٥/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٦) قناة المحور، ١٨/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٧) موقع بي بي سي باللغة العربية، ٦/ ١٢/ ٢٠٠٣م.
(٨) موقع بي بي سي باللغة العربية ، ٣١/ ٥/ ٢٠٠٦م.
(٩) موقع بي بي سي باللغة العربية ، ١٢ / ١١/ ٢٠٠٥م.
(١٠) موقع «لها أون لاين»، ٧/ ٢/ ٢٠٠٤ م.
(١١) نشوى الحوفي، القاهرة والحجاب، جريدة الشرق الأوسط، ٢٤ / ١١ / ٢٠٠٦م.
(١٢) نبيل شبيب، تسييس قضية الحجاب، الجزيرة نت، ١٧/ ٥/ ٢٠٠٦م.
(١٣) د/ محمد أحمد جميعان، المنظمات الصهيونية تحذر من انتشار الحجاب، مدونات مكتوب، ٢١/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(١٤) نشوى الحوفي، القاهرة والحجاب، جريدة الشرق الأوسط، ٢٤ / ١١/ ٢٠٠٦م.
(١٥) السيد أبو داود، الاصطياف على الشواطئ المصرية تغير شكلاً وموضوعاً، موقع الإسلام اليوم، ٣/ ٧/ ٢٠٠٢م.
(١٦) د/ يوسف القرضاوي، الحجاب هل هو رمز ديني؟، إسلام أون لاين، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٣م.
(١٧) سابينة شيفر أستاذة التربية الإعلامية في جامعة نورنبرغ، الحجاب وإمكانيات التربية المناهضة للعنصرية، موقع دويتشه فيله باللغة العربية، ترجمة عبد اللطيف شعيب، ١٢/ ٣/ ٢٠٠٥م.
(١٨) التجاني بولعوالي، معركة الحجاب أو حصان طروادة الأخير، صحيفة كتابات، ١١ / ٧/ ٢٠٠٥م .
(١٩) الحسن سرات، قضية الحجاب في فرنسا أو معركة بواتيه الثانية، موقع العصر، ١٣/ ١٢/ ٢٠٠٣م
(٢٠) بكارولين وايات، الخلاف على الحجاب يخفي قضايا أعمق، موقع بي بي سي باللغة العربية، ١٢ / ١٢ / ٢٠٠٣م.
(٢١) السيد أبو داود، مستقبل التغيير على الأرضية غير الإسلامية، موقع مفكرة الإسلام، ٢٨ من ذي القعدة ١٤٢٧هـ - ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢٢) د/ خالد محمد صافي، التياران الوطني والإسلامي بين الاتفاق والخلاف... الحالة الفلسطينية أنموذجًا، شبكة الإنترنت للإعلام العربي، ٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢٣) فاطمة أحمد حافظ، الخطاب النسوي المعاصر .. صورة من قريب، الشبكة الإسلامية، ١٩/ ٨/ ٢٠٠٤م.
(٢٤) ناصر يحيى، دموع الحجاب، موقع الصحوة نت، ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٦ .
(٢٥) كمال السعيد حبيب، المرأة وملامح الحرب الصليبية الجديدة على عالم الإسلام، مجلة البيان، العدد ١٩٧، المحرم ١٤٢٥هـ- فبراير ومارس ٢٠٠٤م.

معلومات إضافية

ملف الحجاب في الغرب:

* مضى ما يقرب من سبعة عشر عامًا على بدء معركة الحجاب في فرنسا؛ إذ إنه في العام الدراسي ١٩٨٩/ ١٩٩٠ ولأول مرة مُنعت فتيات مسلمات مغاربيات يرتدين الحجاب من دخول مدرستهن الثانوية؛ بدعوى خرقهن قانون العلمانية الذي لا يسمح بإدخال الرموز الدينية إلى المدرسة العمومية، وأُرغمن على ترك الدراسة؛ رغم أنهن مواطنات فرنسيات وُلدن في فرنسا ويعشن فيها.

وفي يوم الأربعاء الموافق ١٧ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٣ دعا الرئيس الفرنسي جاك شيراك البرلمان في بلاده إلى اعتماد قانون يقضي بحظر العلامات الدينية الظاهرة في المدارس العامة، بحيث يكون جاهزًا للتطبيق مع بداية الموسم الدراسي المقبل، وذلك باسم العلمانية التي أكَّد على أنها مبدأ «غير قابل للتفاوض» ولا «لإعادة الصياغة»، ومن بين هذه المظاهر الحجاب.

وتعيش في فرنسا أكبر جالية إسلامية في الاتحاد الأوروبي، ويبلغ تعدادها حوالي خمسة ملايين نسمة.

(BBC Arabic.com)

* بلغ عدد المشاكل التي أُثيرت بسبب الحجاب في فرنسا نحو ٤٠٠ مشكلة، حسب إحصاء أجرته مجلة «لو نوفيل أوبزرفاتور» الفرنسية، نُشر بتاريخ ٢١/ ٥/ ٢٠٠٣.

وفي محاولة لِطَيّ ملف الحجاب في فرنسا عيَّن الرئيس الفرنسي «جاك شيراك» الثلاثاء ١/ ٧/ ٢٠٠٣ الملحق الإعلامي لرئاسة الجمهورية «برنار ستاسي» رئيسًا للجنة «تكون مهمتها مراقبة تطبيق مبادئ العلمانية» في فرنسا، وإعداد توصيات بشأن إمكانية سن قانون يحظر الحجاب في المدارس الفرنسية من عدمه.

الوكالة الفرنسية A.F.B ١٠/ ٢٠٠٣

* ميرفي كافاكي عضوة في البرلمان التركي، قادت النشاط النسائي للاحتجاج على منع لبس الحجاب في الأماكن الحكومية والبنايات العامة في ١٩٩٧، بقرار من الحكومة التركية، بدلاً من أن تفسِّر الحجاب في مقابلة لها بأن الحجاب هو حكم الله سبحانه وتعالى قالت: إن قرارها هو تجربة للديمقراطية، «وفي القرن الواحد والعشرين، يجب أن يسمحوا لنا بهذه الحرية»، وإن حقها في حرية ارتداء حجاب الرأس يكفله الدستور والقانون الدولي.

حملة الغرب الشرسة على الحجاب، مجلة الوعي، العدد ٢١٠ ، السنة الثامنة عشرة، رجب ١٤٢٥هـ، أغسطس/ آب ٢٠٠٤م.

* في ما يتعلق بالحجاب، أيَّد ٥٩٪ من الأمريكيين حق المسلمات في وضع الحجاب في الأماكن العامة، فيما انخفضت هذه النسبة إلى ٢٣٪ في بريطانيا، و١٣٪ في فرنسا. من جهة أخرى اعتبر ٧٧٪ من الأمريكيين أن من حق أولادهم ارتداء ملابس ذات طابع ديني، أو وضع رموز دينية في المدرسة، بالمقارنة مع ١٠٪ في فرنسا.

وتقاربت المواقف بين البلدين حول تعليم الديانة في المدارس العامة؛ حيث عارضه ٧٢٪ من الفرنسيين و٥٩٪ من الأمريكيين.

تقرير للمركز الأوروبي عن أحوال المسلمين في الاتحاد الأوروبي،

وهو تحت عنوان «المسلمون في الاتحاد الأوروبي»

واقع في ١١٥ صفحة، جريدة الرأي الكويتية .

بعض التصريحات المهاجمة للحجاب:

* «الحجاب اعتداء على المرأة يصعب على الفرنسيين تقبله»، «لا يمكن أن نقبل بمظاهر دينية لافتة للنظر، مهما تكن الديانة» (الرئيس الفرنسي جاك شيراك ديسمبر ٢٠٠٣).

(BBC Arabic.com)

* «لا أظن أن هناك أكثر تعبيرًا عن اضطهاد المرأة من غطاء الوجه». (لورا بوش).

(مجلة الوعي، العدد ٢١٠)

* «إن الغطاء من الرأس للقدمين، الذي يمنع الهواء، هو أكثر من أداة للتعذيب، إنه مدنِّس لنشاط المرأة الجنسي. إنه يحول أي امرأة إلى شيء مدنس يدعو للاشمئزاز، ولا يمكن لمسه... إنه كساء يظهر شناعة الإثارة الجنسية، وإنه يتوقع منها العنف والاستبداد...» (بولي توينبي في مقالتها «خلف النقاب» في صحيفة الجاردين البريطانية).

(مجلة الوعي، العدد ٢١٠) .

* «نحن ذهبنا لأفغانستان لتحرير شعبها؛ لأننا نؤمن بالحرية... اليوم (في أفغانستان) النساء أحرار». (جورج بوش في حديثه السنوي لاتحاد الدولة في عام ٢٠٠٢ بالنسبة لعملية «تحقيق الحرية بعيدة المدى»).

(مجلة الوعي، العدد ٢١٠) .

* «إن مصر الليبرالية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين لم تعرف ظاهرة الحجاب إلا «باعتبارها قضية إتيكيت أو آداب وليست عقيدة»، وتعود جذوره إلى مراحل تاريخية قديمة في أكثر من حضارة في قانون حمورابي، وفي فلسفة أرسطو، وفي القانون الروماني، وقد عززت

اليهودية والمسيحية ذلك، كما جرى على سننهم الفقهاء المسلمون» (جمال البنا).

(العربية نت).

* «إن الحجـاب هو امتداد للعصور الجاهلية، وسأسـتمر فى محاربتـه، وإن الجذور التاريخية للحجاب ترجع إلى الحضارة الآشورية؛ وذلك في ظل ظروف أمنية ومجتمعية معينة، وقد امتد هـذا الزي عبر العصور، وورثته الحضارة الإسـلامية، والحجاب هـو علامة عن وصاية الرجل وتسلطه على المرأة» (إقبال بركة رئيس تحرير مجلة حواء).

(http: / /www.muslm.net)

* «الحجاب دخيل، ونسـميه بالزي الطائفي، باعتبار أنه يُخرج من ترتديه عن الوتيرة، فهو نشاز وغير مألوف، ولا نرضى بالطائفية عندنا».

«إننـا نرفض الحجـاب الطائفي ولباس «الهُركة البيضاء» واللحية غيـر العادية، التي تنبئ بانتماء معين، فنحن لدينا مقابل ذلك الجبة».

«إننـا مـن الحداثيين، ونرفض كل انغلاق، ومـع الرئيس ابن علي تمكنا والحمد لله من إرسـاء المعادلة الصعبة بين الأصالة والحداثة، وبين الموروث ونتاج التفاعل مع الآخر»

(وزير الشؤون الدينية التونسي أبو بكر الأخزوري)

(http: / /www.muslm.net)

* أكدت صحيفة (كريستيان يالينس مونيتور) الأمريكية أن هذه القيود التى فرضتها بعض الدول العربية والاسـلامية قد نشـأت مـن الاعتقاد بأن مظهر الالتزام الديني بشـكل عـام يُخفي وراءه أغراضًا سياسية يمكن أن تهدد النظام الحاكم .

(مجلة الشرق القطرية)

* «إنني شـعرت بشـيء من عدم الارتياح، وأنا أتحدث «وجهًا لوجه» مع شخص لا يمكنني أن أراه»، «أقلقتنـي فكرة أثر هذا الاتجاه المتعاظم -ولو أنـه لا يزال ضيق النطاق- على العلاقات بين أطياف المجتمع» جاك سترو وزير الخارجية البريطاني السابق والنائب الحالي.

(BBC Arabic.com)

* على المسلمات المهاجرات ألا «يختبئن» تمامًا وراء حجاب كامل إذا كن يردن الاندماج في المجتمع، وأن يصبحن جزءًا من مستقبل إيطاليا». (رئيس الوزراء الإيطالي رومانو برودي).

(شبكة النبأ المعلوماتية)

* أيدت أكثر من ٦٠ شـخصية فرنسية بارزة من النسـاء، بينهن إيزابيل أدجاني ومصممة الأزياء سونيا ريكيل، حملة رعتها مجلة إيل لحظر ما سموه «رمزًا واضحًا لخضوع المرأة».

(BBC Arabic.com)

عندما اتخذت فرنسـا قرارهـا بمنع الفتيات المحجبـات من دخول المـدارس والجامعات فإنها أعطت الشـجاعة لبقية الدول الأوروبية؛ بل ولبعض الـدول العربية في أن تحذو حذوها، ومثال ذلك:

- هولندا التي قررت منع النقاب في الأماكن العامة باعتبار أنه زي خطر على الأمن.

- بلجيكا التي قررت إحدى مقاطعاتها منع الحجاب في مدارسها.

- إيطاليا التي فضلت العودة لقانون قديم يُتيح لها منع غطاء الرأس لدواعي أمنية.

- ألمانيا التي قررت بعض ولاياتها منع حجاب المعلمات في مدارسها.

- بريطانيا التي أبعدت إحدى مدارسـها إحدى مدرسـاتها المسـلمات التي صممت على لبس النقاب أثناء تدريسها للأطفال مما يعيق العملية التعليمية.

- السويد التي رأت وزيرة شئون الاندماج فيها أن الحجاب يفصل من ترتديه عن محيطه.

- الفاتيكان صرح بعض مسئوليه بأنه يجب على المسلمين أن يحترموا القوانين التي تمنع ارتداء غطاء الرأس في الدول الغربية.

- سنغافورة بجنوب شرق آسيا أصدرت أيضًا قانونًا يمنع الحجاب في المدارس.

- المغرب حيث أصدرت شـركة الطيران الملكية أمـرًا إداريًّا يمنع موظفاتها اللاتي يتعاملن مع الجمهور من ارتداء الحجاب.

- تونس التي كانت من أوائل الدول التي أصدرت قانونًا يمنع الحجاب في المدارس والجامعات والمؤسسـات العامة، عادت هذه الأيام لتؤكد على جديتها في تنفيذ هذا القرار، بعد أن وجدت أن الحجاب بدأ يعود للظهور بين التونسيات، وخرج معظم المسئولين هناك يؤكدون على جدية الدولة في مواجهة هذا الزي، وصرحوا بأنه زي طائفي عنصري دخيل على تونس.

كرة الثلج تتدحرج (النقاب والحجاب في مصر والعالم)،

منظمة أقباط الولايات المتحدة «http: / /www.copts.com /arabic» .